البحث الثاني

الصابئة المندائيون ودورهم الحضاري

هناك فرق كبير بين كتابة التاريخ وفق منهج سردي مجرد وبين منهج تحليلي مدروس لبنية الذات الحضارية، ولكي نستوعب الحركة الفاعلة لهذا البناء الحي وقوة تأثيرها في بنية الحضارة ؛ يتوجب على الباحث أن يدقق ويصل إلى مدركات حقيقية ، ولا يتوقف في بحثه عند سطوح الحوادث ، وبعيدًا عن الإعجاب الانفعالي والتعصب ؛ نجد أن للصابئة دورًا فاعلاً ومؤثرًا في هذه السيرورة لا يمكن إغفاله لكونهم عربًا خلصاء جزريين ، يرجع وجودهم إلى تاريخ موغل في القدم، ويتصل نسبهم بـــ(آرام) ابن (نوح) عليه السلام... الذي لقنهم الناموس الأكبر "الكنزا ربا" الذي نجد فيه روح جميع الأديان السماوية وتعاليمها...

يقول عنهم الشهرستاني في كتابه "الملل والنحل": "والصابئة كلهم يصلون ثلاث صلوات ، ويغتسلون من الجنابة ومن مس الميت ، ويحرمون أكل الخنزير والكلب، وينهون عن السكر في الشراب، ولا يتزوجون إلا بولي وشهود"... إلا أن الشهرستاني يقول في موضع آخر : وفي اللغة صبا الرجل إذا مال وزاغ، ولزيغهم عن نهج الأنبياء قيل لهم الصابئة!.

وهذا تخريج تنقصه الأمانة ويرفضه منطق التاريخ ، لأن التسلسل السلالي يقول: "إن الصابئة ينسبون إلى صابي بن متوشلح بن إدريس بن سيدنا نوح، والذي كان على الحنفية الأولى" ، وهذا صحيح ويؤيده أصل تسمية (الصابئة) لأننا نجد أن مدينة (مأرب) وهي أشهر مدن اليمن كانت تعرف قديمًا باسم (سبا) نسبة إلى سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان أول ملوك هذه الأسرة السبئية... وبالتحقيق الدقيق نجد أن التسمية (صبأ) و(صابئة) هما تصويت حديث للكلمة (سبا) و(سباي) القديمتين، ونجد أن مدينة (مأرب) هي الأخرى تصويت حديث

لكلمة (ما – ربا) الآرامية التي يتحدث بها الصابئة والتي تعني (الماء العظيم)، ونستنتج من ذلك أن الصابئة هم الذين بنوا سد مأرب وأقاموا حضارة عظيمة في جنوب الوطن العربي منذ أزمان موغلة في القدم.

وإذا رجعنا إلى بعض الكلمات الصابئية التي ذكرتها الأستاذة ناجية مراني في كتابها مثل كلمة (سبا) تعني (شبع) بالعربية، و(مصباتا) تعني (صبغ، تعمد)، وهذه الكلمات بالحقيقة اشتقت عن صفات السبابيين الذين كانوا على جانب كبير من الشبع والغنى، والاهتمام بالموارد المائية من أجل التطهير والري، مثل ما كان الناس في العصر العباسي يصفون الكريم والسخي بـــ(فلان برمكي) نسبة إلى البرامكة.

أما تسمية الصابئة بـــ(المندائيين) التي تقول عنها الليدي دراور "إن سواد الصابئة يسمون بالمندائيين، أي المعرفيين أو أصحاب العلم، وهذه التسمية أيضًا اشتقت من صفة الصابئة المعروفين بالحكمة والذكاء، إلا أن هذه التسمية بالتأكيد قد جاءت من إتباعهم للنبي (مند) [1] الذي لا يزال مكانه يُعرف بـــ(تل النبي مند) قرب منطقة (قادش) التي تعرضت إلى غزو فرعوني في عهد (الحيثيين عام ١٢٠٠ ق.م.

ونرجع إلى (المسعودي) وكتابه "مروج الذهب" الذي يقول فيه: "إن السمنية طائفة انتحلت البوذية وانتشرت في المناطق العربية مثل الشام والعراق، وأيضًا تسربت هذه النزعة إلى الصابئة! وهذا عكس ما تشير إليه الدلائل التاريخية، لأن المعروف عن اللغة الآرامية – وهي لغة الصابئة – قد انتشرت وفرضت وجودها بعد سقوط بابل عام ٥٣٩ ق.م على يد الإمبراطور الفارسي قورش، واستمرت لغة للعلم والتجارة والأدب والعلاقات الدولية؛ حتى اضطر موظفو الدولة إلى تعلمها واستعمالها في المراسلات إلى جميع الولايات من مصر غربًا وحتى بلاد فارس والهند، وبهذه الطريقة ومن خلال السياح الآراميين (الصابئة)

١- لا يوجد لدى الصابئة المندائيين نبي باسم (مند)، وكلمة مندي أو مندئ تعني بيت العبادة.

إلى بلاد فارس والهند ، ونشاطهم التجاري والتبشيري تركوا آثارهم اللغوية والدينية على شعوب هذه البلدان، وليس كما توهم (المسعودي).

كذلك نجد أن البابليين والآكديين كانوا يرون في الماء مصدر للحياة ويتطهرون به على طريقة الصابئة ، وحتى الشرائع والقوانين العراقية القديمة قد تأثرت بشكل كبير بتعاليم الكنزا ربا ، حيث يجمع الباحثون بالفلسفة والشرائع القديمة أن تشريع حمورابي مستقي من تعاليم إبراهيم... وذهبوا إلى أبعد من ذلك وأكدوا أن البرهمية أو البراهمة أخذت بتعاليم إبراهيم نفسه ، إذا لم يكن هذا الاسم موجود بالهند قبل القرن الذي عاش به إبراهيم...

ويروي الشهرستاني : "ومن مذاهب الهنود من يقول بملة إبراهيم عليه السلام، وأكثرهم على مذهب الصابئة ومناهجها ، والذي يؤكد هذا الرأي ما نجده من تأثير لغة الصابئة على اللغات الهندية القديمة، يقول الدكتور على زيعور في اللغة السنسكريتية واللغة الباليوية وفي تجانس الفكر الهندي، وتفنيات المراقبة (سما – دهي) ، كما يعرف تاريخ الفلسفة فرضية تقول إن أرسطو ينقل ميتافيزيقياه من (السماكهيا) ! بينما يرى آخرون أن (درشنا) هي الأفضل لكونها تعني منهجًا، وهدفها الأول هو إحكام الحيازة والممتلكات (أرثها – Artha).

من هذه المؤثرات الصابئية على الفلسفة الهندية نجد منها اسم الحكيم أو العارف (ريشي، رشي) ، وتحوي التشريعات الموزعة على اثني عشر بابًا تتناول خلق العالم وشؤون طبقة البراهمة مثل : التلمذة والغسل والعبادات وأحكام القرابين والتقدمات والآداب العامة، وواجبات البرهمي، مثلاً أن يكون عالمًا مضيافًا بلا حد أو شهوات أو كذب ورذائل. وينقل لنا الدكتور زيعور عن الأستاذ جونو هذه الفقرات من كتابه (الفلسفة الوسيطة) : لاحظ أوينسيكريت وجود نقاط شبه جمة بين الهنديات وفيثاغورس وسقراط وديوجانيس طاليس ، وأن الإسكندر أرسل إلى أستاذه رسائل هندية انتفع منها أرسطو في بناء مذهبه.

ومن هذا البحث الموجز نكون قد أدركنا أبعاد الفكر الصابئي وتأثيره الواسع، وأرجو أن يلاحظ القارئ ما في الفلسفات الهندية من أسماء ومصطلحات صابئية مثل (ارثا) التي تعني (الارث) الآرامية، و(سما دهي) و(ريشي) أي (الرئيس) وغيرها كثير لا يتسع المجال إلى بحثها، وتحتاج إلى دراسة موسعة لإبراز فضل الصابئة في نشر اللغة والأدب والتشريع والفلسفة وعلوم الفلك والطب على بلاد الهند والأمم التي تأثرت بها.

من المفارقات في إحدى زياراتي إلى الهند [1] دعانا عميد الأكاديمية الهندسية لحفل زواج ولده، ويظهر أن هذا الرجل من أغنياء الهند بدرجة مهراجا، إذ يملك قصرًا باذخًا يطل على نهر جاري، جرت فيه مراسم الزواج، وأنا دهشت عندما لاحظت رجل الدين وكأنه رجل مندائي بهيئته ورستته (ملابسه الدينية البيضاء)، وبيده المركنة (عصا الزيتون)، ثم العريس والعروس وهما يلبسان الملابس الدينية البيضاء بكل تفاصيل الرستة، وكيف تمَّت صباغتهم وقطع المهر لهم أصوليًا بالتفاصيل التي يجريها رجال الدين المندائيون في العراق وإيران، وحاليًا في دول المهجر، وزاد اندهاشي عندما شاهدت السكندولة معلقة في هيمانة العريس، وهنا سألت المرافق لنا ماذا تعني هذه؟ فسأل رجل الدين فقال:

الأسد يعني القوة (النار).

النحلة تعني الهواء.

الأفعى ترمز إلى الماء.

العقرب يرمز إلى التراب.

فعند اتحاد الهواء مع النار تنتج الغازات أي النشمثا (نسمة الحياة)، الجانب الروحاني من الإنسان، وعند اتحاد الماء مع التراب ينتج الطين، أي الجسد الجانب المادي من الإنسان، والإنسان يتكون من عنصر روحاني وعنصر

١ـ من مذكرات المؤلف.

مادي، المهم أن مراسيم عقد الزواج لا تختلف عن مراسيم المهر عند الصابئة المندائيين التي نعرفها.

أنا شخصيًا لا أدري بالدقة هل كان للصابئة المندائيين وجود بالهند، خصوصًا في بومباي مثلاً، أم أن العقائد والأفكار هي التي تسافر، وأن هناك من ينقلها، مثلما انتقل الفكر المسيحي بواسطة المبشرين والتجار.

كتبوا عن الصابئة :

الصابئة طائفة تسكن في جنوب العراق، يبلغ عدد أفرادها نيفًا وأربعين ألف نسمة، وتدين بدين قديم يعود إلى عهد آدم أبي البشرية، ويرجح أن موطن الصابئة القديم في (حران) في شمال العراق وأن قسمًا منهم سكن إقليم (بشتكوه) ومندلي (جبال ميديا) على الحدود العراقية الإيرانية، حيث عثر على بعض الآثار لهم.

لكن منازلهم الحالية تقع على ضفاف الأنهر في جنوب العراق وإيران، وخاصة في ألوية العمارة والمنتفك والبصرة، وفي نواحي المحمرة والأهواز ودزفول، وقد نزح فريق منهم قبل أمد قصير إلى بغداد وسواها من المدن الكبيرة، واستوطنوها طلبًا للرزق، وقلما تبعد مساكنهم عن ضفاف الأنهار والمياه الجارية بالنظر إلى ما تفرضه ديانتهم من وجوب التعميد والاغتسال بالماء الجاري في مختلف الأوقات، وهم يتكلمون العربية كسائر جيرانهم، إلا أن لهم لغة دينية خاصة بهم تعرف بالمندائية وهي لغة سامية تقرب من السريانية، وقد تداخلت فيها كلمات فارسية وعربية.

ويعتقد الصابئة بالله علة العلل ويسمونه بلغتهم (اد هيي ربي) أي ربي الحي، و(ملكا راما دنهورا) أي الملك النوراني الأعظم و(ربي قدمايي) أي الرب الأزلي، ويقول الدين المندائي بخلود الروح وانتقال الأرواح الصالحة بعد الموت إلى (المي دنهورا) أي عالم الأنوار أو الجنة، وبتعذيب الأرواح الشريرة في النار حتى تتطهر.

ولا تجيز الديانة الصابئية الطلاق[1]، ولكنها تجيز تعدد الزوجات، وتحرم البكاء على الموتى، وكتبهم المنزَّلة مكتوبة بالمندائية وهي كثيرة، أهمها (كنزا ربا) أي الكنز العظيم، الذي يبحث عن الخليقة ومنشأ العالم، وكتاب (ادراشا اد يهيا)

١- الطلاق عندهم فراق ، ويحق للزوج والزوجة العودة لبعضهما البعض دون إجراء مراسيم دينية جديدة.

أي تعاليم النبي يحيى الذي يتضمن سيرة النبي يحيى والأحكام والمواعظ الدينية التي أتى بها، ولهم عدا ذلك كتب مقدسة أخرى، منها (سدرا نشماثا) أي كتاب النفوس الذي ينص على أحكام الجنائز ودفن الأموات، وكتاب (القلستا) أي كتاب الفرح الذي يذكر مراسيم الزواج، وكتاب (الديونان) الذي يروي سير الأولياء والأنبياء، وعلماء الصابئة على خمس درجات، أدناهم مرتبة (الحلالي) ويليه (الترميذا) أي التلميذ، ف (الكنزبرا) أي مفسر كتاب الكنزا، ف (الريشما) أي رئيس آمة، ف (الرباني) ولم يحز هذه المرتبة سوى النبي يحيى (عليه السلام)... إن علماء الصابئة في الوقت الحاضر بأجمعهم دون الريشما.

أما الانخراط في سلك العلماء والارتقاء في مدارجه فله شروط خاصة وقيود صعبة، أما وظائف رجال الدين فكثيرة ولها مساس بكل ناحية من نواحي حياة الطائفة، وأهمها صباغة أفراد الطائفة وتعليمهم أمور دينهم وإجراء عقود الزواج، وكذلك مراسيم ودفن الموتى...

وللصابئة تقويم خاص بهم، بدأ بالخليقة وكذلك ميلاد النبي يحيى (ع)، وسنتهم شمسية تتألف من ١٢ شهر، في كل شهر ٣٠ يوم، وأول شهورهم نيسان، وعطلهم الأسبوعية يوم الأحد، ومن أعيادهم العيد الكبير (دهوا ربا) ومدته ٣٦ ساعة، وعيد البنجة (دهوابرونايا) ومدته خمسة أيام، والعيد الصغير (دهوا حنينا) ومدته يومان، وعيد (كورائيل شليها) أي جبرائيل، و(دهواديمانا) ومدته يوم واحد...

وقد اشتهر من الصابئة في سالف الأزمان بعض الأدباء والفضلاء كأبي إسحاق الصابي إبراهيم بن هلال الكاتب المشهور المتوفى سنة ٣٨٠هـ، وحفيده أبي الحسن هلال ابن الحسن صاحب كتاب (الأماثل والأعيان) المتوفى سنة ٤٤٧هـ، وثابت بن قرة الحراني الذي اشتهر بالطب والفلك والفلسفة، والبتاني العالم الفلكي المشهور.

ويزاول الصابئة اليوم من المهن الصياغة والنجارة والحدادة والزراعة، إلا أنهم اشتهروا بصياغة (الميناء)، أي نقش الفضة وحفرها وتلبيسها بالميناء، وهي حرفة احترفها أغلبهم وبرعوا فيها وكانوا يختصون بها دون غيرهم في العالم أجمع...

وقد سافر قسم منهم إلى جميع أنحاء العالم، فحازوا إعجاب الجماهير والمراجع العليا بما قدموه من بدائع صنعتهم هذه، ومع افتتاح المدارس في بداية الحكم الوطني رأينا شبابهم يندفعون بقوة لطلب العلم والمعرفة، كما تخرج قسم منهم معلمين وضباط وموظفين صحيين، وامتازوا بالأمانة والإخلاص في العمل والطموح نحو الأحسن.

ومن وجهائهم في زماننا عنيسي الفياض وفندي الفعل، سيف آل مناحي، ضامن حويزاوي، زامل بن مسعود، حلحل بن صنكور وتامول بن جناح، مرعي بن مدلول، داغر الماجد، مجيد آل خالد، جايد آل مدهوش، عمارة آل صحن، كثير بن صكر، شلتاغ آل غافل، عسكر بن رومي، حاكم بن سلطان، مجبور بن طارش، حيدر بن جودة، حافظ بن حريب، نايف الغافل، عزيز بن مسلم، يوسف السالم، رشود بادي، ياسر صكر، نعيم بدوي، غضبان رومي، عبد الجبار عبد الله، عبد الرازق عبد الواحد، ناجية غافل، لميعة عباس عمارة، مكلف سوادي في العصر الحديث.

ومرة أخرى مع الأستاذ المربي الفاضل نعيم عربي ساجت في مقال قيم عن ظهور الدين في حياة البشر؛ حيث ذكر أن ظهور الدين في حياة البشر منذ آلاف السنين بالتأكيد لم يأتِ فجأة، ومن فراغ، ولم يكن اعتباطًا أو لترف فكري أو فلكلور، وإنما حتَّمته الضرورة التاريخية لحياة الإنسان في تلك الحقب السحيقة في القدم، وقد بدأ بإرهاصات فكرية تخيلية لإنسان كان يعيش بأجواء الخوف والفوبيا تجاه التهديد الدائم لحياته ووجوده من عناصر الطبيعة وقواها القاسية المدمرة، هذا من جهة، والحاجة إلى تنظيم حياته ليس كفرد وإنما

كمجموعات بشرية تعيش وتعمل سويًا متحدة متعاونة لأجل بقائهم في تلك الحقب القديمة.

وبلا شك إن هذا قد حدث في حياة الإنسان قبل امتلاكه المعرفة التي تمكنه من سبر أغوار غياهب ما وراء الطبيعة، وقبل أن يتوصل إلى القوانين الوضعية لاستخدامها في تنظيم حياته كإنسان يعيش مع جماعة كمجتمع بشري وليس كما كان تائهًا في الغابات والبراري.

بلا شك إن وجود الرب أو الإله الخالق في فكر الإنسان وتصوره شيء، ووجود الدين كعقيدة للعبادة شيء آخر، إذ لو كان الدين أو العقيدة الدينية يعني الله أو الإله إذن لانتفت حالة أو ظاهرة تعدد الأديان، فيكون في هذه الحالة (إله واحد لدين واحد)، ولكن الحقيقة ليست كذلك، إن تنوع الأديان جاء نتيجة لاختلاف التصورات الميتافيزيقية المتراكمة للبشر عبر تلك الحقب التاريخية المختلفة، فكل جماعة من البشر تعيش في بقعة معينة من الأرض، مجتمع معين اتخذ له تصورات خاصة عن الرب أو الإله، وهذه التصورات لتلك الجماعات بحكم أنها في أماكن متباعدة وبيئات مختلفة، منها في بلاد الرافدين ومصر الفرعونية وفارس والهند والجزيرة العربية واليونان وروما... الخ، لم تنشأ متطابقة بل ظهرت بأشكال مختلفة، وعلى هذه الأشكال من التصورات صيغت الطقوس وطرق العبادة للخالق.

من هنا نرى أن الدين كل الدين الذي هو مجموعة التصورات عن الخالق والطقوس وطرق العبادة الموجودة في الوقت الحاضر لدى الشعوب هي امتداد لتلك الأديان القديمة التي قام بتكوينها الإنسان، إذ لو لم يكن الإنسان صانعها لكانت ديناً واحدًا، لكنها رغم الاختلاف فيما بينها بالطقوس وطرق العبادة إلا أنها الآن تلتقي جميعًا في فكرة التوحيد للخالق (الإله أو الله أو الحي العظيم الأزلي أوهوارا مازدا أو يهوه وغيرها من الأسماء للخالق).

وأنها أيضًا تقترب من بعضها في جوهر الدين وأهدافه، فكل ما جاءت به الشرائع والعقائد الدينية كافة يؤكد على أن الدين هو مسلك وطريق يمنحنا تعاليم وقواعد أخلاقية تحد من أنانيتنا وتلجم أهواءنا السلبية وتساهم في تهذيب غرائزنا، وتحث نفوسنا نحو السمو والارتفاع عن الحيوانية، لأن الله لا يريد منا سوى أن نعرف مواقع الخير في نفوسنا ونهتدي بها في حياتنا ونبتعد عن كل الشرور، وأن نعالج الخلل والاعوجاج إذا تسلل إلى داخل نفوسنا، فنرتفع إلى رحاب الإنسانية التي يكون فيها الإنسان دائمًا مع الحق والعدل، وبالتالي فهو يحمل مسؤولية مكافحة الخطأ والاعوجاج في المجتمع ومحاربة الظلم والاعتداء والتهور...

يقول المهاتما غاندي زعيم الهند : (إن الديانات دروب تختلف وتتقارب حول الرأي ذاته، ماذا يهم أن نسلك دروبًا تختلف طالما سنصل كلنا إلى الهدف نفسه)... أي عبادة الخالق الواحد والاسترشاد بالتعاليم الدينية.

لقد استُغل الدين على مدى الحقب التاريخية من قبل الملوك والأباطرة والسلاطين والطبقات الحاكمة، بتكريس الدين لخدمة أغراضهم ومصالحهم الخاصة وذلك بتحريف وتشويه تعاليمه في العدالة والمساواة واحترام حقوق الإنسان، بتخدير الناس وخاصة الطبقات الفقيرة المسحوقة من العمال والفلاحين وكل الكادحين الذين يقوم على عملهم وتعبهم بناء كل مجتمع وديمومة حياته، وذلك بجعلهم بواسطة الدجالين ووعاظ السلاطين يعتقدون أن هذا هو قدرهم وأن رضى الله من رضى أولي الأمر، وطاعته من طاعتهم.

نعم... منذ نشأة الدين والحكام جعلوه لخدمة أغراضهم في الحكم والتسلط على رقاب العباد، هكذا فعل ملوك السومريين والبابليين والآشوريين والفرس والفراعنة والرومان واليونانيون القدماء، وما قامت به الكنيسة في القرون الوسطى لمحاربة الشعب، وفي طليعتهم الفلاسفة والعلماء الذين كانت تسجنهم في أقبية محاكم التفتيش وبيعها صكوك الغفران، وما قام به حكام إيران ببيعهم

(مفاتيح الجنة) للجنود الإيرانيين الذاهبين لمحاربة العراق، وكذلك ما قام به الدكتاتور صدام بـــ(حملته الإيمانية) لخداع الشعب وتخديره للبقاء في الحكم.

نعم فكل الطغاة والبغاة استخدموا الدين لخداع الجماهير وحرف نضالها وتطلعاتها في الحرية والكرامة والعدالة، أما الدين في الوقت الحاضر فهو في المجتمعات المتقدمة حضاريًا، والعلمانية قد أخلى مكانه السابق في التدخل السافر في الحياة المدنية، وسياسة الدولة لشؤون المجتمع قد أخلى مكانه للدولة لإدارة نظام المجتمع حسب القوانين الوضعية التي تقوم على العلم والمعرفة في كل أمور الحياة المادية والثقافية وتنظيم حياة الناس تنظيمًا حضاريًا تحت ظل القوانين السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي تحقق العدالة الاجتماعية والحرية السياسية والفكرية بهدى نظريات وأيديولوجيات سياسية مختلفة، رأسمالية واشتراكية وشيوعية ولبرالية تتنافس في ما بينها بطرق سلمية حضارية تحت خيمة الدولة العلمانية.

هذه الأنظمة الحضارية وقوانينها المدنية جعلت الإنسان ينعم بالاستقرار والاطمئنان، ويمارس حياته بحرية بعيدًا عن أية قيود، ما عدا الالتزام بالقضايا المتعلقة بالمصالح العامة واحترام حقوق الآخرين وحرياتهم، والمساهمة في بناء المجتمع على ضوء العلم والتكنولوجيا والأساليب الحضارية الحديثة، فالدين صار مكانه الحقيقي في داخل الإنسان، أي بين الإنسان والإله، فله الحق الكامل في معتقده الديني الذي نشأ هو وعائلته عليه، وليس هناك الحق لأي جهة أخرى سواء كانت دينية أو مدنية أو سلطة لإجباره على اعتناق دين آخر.

أما الدين في المجتمعات المتخلفة حضاريًا فهو لازال مسيسًا وفي قبضة وسيطرة الحكام والطبقات الغنية المتنفذة، فهؤلاء استخدموا الدين سياجًا لحماية مصالحهم، بتجنيده الكثير من رجال الدين كوعاظ لتخدير الناس وغسل أدمغتهم لكي يظلوا قانعين بحياتهم المزرية التعسة، فلا يحتجون أو يثورون على ظالميهم، فهذا هو قدرهم المكتوب على جباههم، وفي هذه الدول المتخلفة نرى

سيطرة دين واحد على المجتمع، وبقية الأديان المسيحية واليهودية والمندائية والزرادشتية واليزيدية وغيرها، فهي تظل أقليات مهمشة في كل مجالات الحياة بل ومحاربة ومحتقرة من قبل معتنقي الدين المسيطر بسبب التوجيه الخاطئ المتوارث...

لهذا نرى التطرف الديني يظهر ويزداد يومًا بعد يوم حتى وصل هذا التطرف الديني بشكل إرهاب دموي مسعور يهدف إلى إلغاء دين الآخرين، بل وحتى وجودهم في الحياة، فجعلوا من أنفسهم قضاة وحاكمين بدل الله، الذي يعرفون هم جيدًا كما جاء في كتب الدين التي يدينون به أن الله هو وحده عنده العقاب والثواب، وكل الأديان تقول إنه ليس هناك من شريك للإله في حكمه وسلطانه، لا من البشر ولا من الملائكة، نقول لهؤلاء الذين جعلوا من أنفسهم شركاء لله في حكمه وسلطانه، وراحوا ينفذون حكم الموت على كل الذين ليسوا على دينهم، ونسوا أو تناسوا ما جاء في القرآن الكريم من نصوص عظيمة تدعوا إلى احترام الإنسان من أي دين أو ملة، والحث على نشر روح المحبة والتآخي بين كافة البشر، فلو شاء ربك لجعلهم أمة واحدة، أي لو أراد الله لجعلهم ملة واحدة، أي دينًا واحدًا، ولكنه حسب هذه الآية أرادهم هكذا أديانًا متنوعة في العالم، وكلها طرق وطقوس لعبادته.

فالبشر بتنوع أديانهم أشبه بحديقة أزهار متنوعة الأشكال والألوان، فلا إكراه في الدين، والشيء المؤسف والمخجل أن نرى التعصب الديني المقيت موجود، ليس عند المسلمين فقط؛ بل موجود عند بعض أتباع الديانات الأخرى، المسيحية واليهودية والمندائية وغيرها، وقد صدق أبو العلاء المعري رحمه الله إذ قال:

إنّ الشّرائعَ ألقت بيننا إحُنًا وعلمتنا أفانينَ العداوات

وقال أيضًا:

كـــم وعـــظ الواعظـــونَ منّـــا فـــــي الأرض أنبيـــــاءُ
فانصـــرفوا ، والـــبلاء بـــاقٍ ولـــم يـــزُل داؤكِ العَيـــاء

وقال أيضًا:

فـــي اللاهوتيـــة ضـــجّةٌ مـــا بـــينَ أحمـــدَ والمســـيحْ
هـــذا بنـــاقوسٍ يـــدقُّ وذا بمئذنـــةٍ يصـــيحْ
كـــلٌّ يمجّـــدُ دينـــهُ ياليتَ شـعري مـا الصـحيحْ

في حين نرى شاعرًا فيلسوفًا صوفيًا عربيًا مسلمًا يعطينا صورة بمنتهى الروعة والكمال للإنسان النقي الخالي من درن التعصب الديني، بل دينه كل الأديان، وحبه يتجه لكل بني البشر، إنه (بن عربي)، إذ يقول:

لقـــد كنـــتُ قبـــلَ اليـــوم أنكـــرُ صـــاحبي
إذا لـــم يكـــنْ دينـــي إلـــى دينِـــه دَانِـــي
لقـــد صـــارَ قلبـــي قـــابلاً كـــلَّ صـــورَةٍ
فمَرْعًـــى لغِـــزْلانٍ ، وديـــرٌ لرُهبـــانِ
وبَيـــتٌ لأوْثـــانٍ ، وكعبـــةُ طـــائفٍ
وألـــوَاحُ تَـــوْراةٍ ، ومُصْـــحَفُ قُـــرآنِ
أديـــنُ بـــدينِ الحُـــبّ ، أنّـــى توَجّهـــتْ
رَكَائِبُـــهُ ، فالحُـــبُّ دينـــي وإيمـــانى

ويقول توماس المفكر اللاهوتي الألماني: (النعيم ليس شيء فقط في العالم الآخر، بل علينا أن نبحث عنه في حياتنا الدنيا هذه، واجب المؤمنين أن يقيموا ملكوت الله على هذه الأرض)...

فيا أيها البشر لنجعل من أشجار حديقة الحياة على هذه الأرض كلها خضراء بالمحبة والتعاطف الإنساني، فالله محبة، والدين محبة، والحياة محبة، فعالم الحب هو الباقي وعالم البغضاء هو المنهزم الفاني، فلتندحر كل أفاعي الكراهية والعداوة من حياتنا فلا يبقى من آثار سمومها المدمرة شيء يذكر، كما تندحر الظلمة أمام النور، وفي عالم المحبة وحده يتألق النور...

دراسة التطورات في النقاش حول أصل المندائيين :

تسبب وجود أسطورة هجرة الصابئة المندائيين من حوض الأردن إلى الجبال الميدية طورا دماداي وحران في مخطوطة حران كويثا (حران الداخلية) بسبب اضطهاد اليهود لهم ، ووجود بعض العناصر السامية الغربية في الدين (مثل الكرمة جفنا والحق – العهد كشطا) في نشوء نظرية الأصل الغربي للمندائيين مبكرًا.

وأشار إلى ذلك مستشرقون كبار مثل نولدكه وليدزبارسكي ، ثم أيدت الباحثة الكبيرة في المندائيات ليدي دراور هذا الرأي لاحقًا ، وهو الرأي الذي صاغه عالم الساميات المعروف رودولف ماتسوخ ، وأيده كذلك كورت رودولف ، من جانب آخر وبسبب الجذور البابلية والرافدينية العميقة للدين ، أشارت أقلية من الباحثين مثل باومغارتنر وفورلاني إلى أن أصل المندائيين هو بابل ، وهو الرأي الذي بدأ يتردد مجددًا بين أوساط علماء المندائيات.

يلخص ماتسوخ نظريته في مقدمة كتابه عن اللغة المندائية الكلاسيكية والمعاصرة فيقول : (يجب أن تكون هجرة المندائيين من وادي الأردن إلى المرتفعات الميدية قد حدثت أثناء حكم الملك الفرثي أرتبان الثالث ، وأثبتت محاولة ك. رودولف لوضع الهجرة في زمن أرتبان الخامس ، وآراء إي. بامل بأنها حدثت في فترة حكم أرتبان الرابع القصيرة ، وهي غير مثبتة تاريخيًا ، وقبل انتهاء الحكم الفرثي انتشر المندائيون في كافة أرجاء وادي الرافدين ، وفي القرن الثاني للميلاد أخذ العيلاميون والميسانيون منهم خطهم الذي اقتبسوه من الأنباط).

أما كورت رودولف فيقول في كتابه (المندائية) لأيدن ١٩٧١ : (من الصعب الحديث عن أصل المندائيين وتاريخهم لأنه أمر لم يدرس في كتبهم على الإطلاق ، وهم أنفسهم يعتقدون أن دينهم كان الأول ووضعه عالم النور ، ولا يعنيهم تاريخ هذا العالم في شيء... وتوجد أسطورة متوارثة عن اضطهاد

الجماعة (بالأصح ٣٦٠ كاهن) في أورشليم على يد اليهود الذين قادهم أدوناي والروها والشوفا، ويعتقد أن تدمير أورشليم على يد قوى النور جاءت عقابًا لليهود على ذلك... علاوة على ذلك نجد في حران كويثا تفاصيل إقامة الناصورايي في تلال ميديا (طورا دماداي) أو حران الداخلية، حين هربوا بقيادة الملك أردبان من الحكام اليهود، وتم تشخيص أردبان الغامض هذا بالملك الفرثي أرتبان الثالث، أو الرابع أو الخامس، أي في فترة حكم الملوك البارثيين المتأخرين في القرن الأول أو الثاني الميلادي...)، وأدوناي هو إله اليهود، الروها هي روح العالم المادي الشريرة والشوفا (شفياهيي بالعامية المندائية وهي شوبا أو شوفا أي السبعة) هم الكواكب السبعة الشريرة، أعوان ملك الظلام.

ويستمر رودولف في تحليل نمط ومواضيع هذا التراث المندائي القديم ومقارنته مع مختلف النصوص اليوحناوية يوضح بأنه يرتبط بالتراث المسيحي الفلسطيني السوري القديم، ولا يعطينا الأدب المندائي أية إشارة إلى أن الطائفة كانت في يوم من الأيام مسيحية، على العكس من رأي بعض العلماء...

ومن الأفكار القديمة نجد بهيري زدقا (المختارون الحقيقيون) ومار إد ربوثا (رب العظمة) ورازا (السر)، والكثير من المصطلحات واللغة الرمزية حول التعميد، وكأنها تكرار لنصوص قمران، والأردن دائمًا هو اسم أي ماء مناسب للتعميد للمندائيين، وتؤكد العلاقة الواضحة مع الطوائف المعمدانية شرقي الأردن ومع المسيحية البدائية في سوريا، علاوة على العديد من العناصر السورية الغربية المميزة في اللغة والميثولوجيا المندائية مثل (مندا، ناصورايي، جفنا، كشطا، والملائكة التي تبدأ ب "يو")، نظريتنا في الأصل الغربي للمندائية.

أولاً : نترك المواضيع المتعلقة بهجرة ما جانبًا، فهي تكرار لتقاليد قديمة (هجرة إبراهيم إلى حران ثم إلى كنعان، هجرة أخوة يوسف إلى مصر ثم

الخروج العبري من مصر بقيادة موسى، هجرة يسوع وعائلته إلى مصر... الخ).

وهناك أمثلة عديدة في تاريخ الأديان حول اقتباس أساطير وقصص من الشعوب الأخرى، (والمثال الأسطع هو إطلاع اليهود على الميثولوجيا والأساطير الرافدينية بعد نفيهم إلى بابل، ومنها استمدوا أساطيرهم بعد تحويرها، مثل الخليقة والطوفان، وذلك عند تحرير التوراة وكتب الأنبياء والمزامير وغيرها من كتبهم في فترات متأخرة)، ما يهمنا هو العناصر الغربية في الدين المندائي.

أحد أهم العناصر هو تعبير (ناصورايي) وهو العالم في الدين والمتبحر في أموره وأسراره، فمن أين أتت هذه الكلمة وما معناها؟، أصل الكلمة الفعل نصر هو صيغة قديمة للفعل نطر، ومنها ينطر، أي يحرس، يحمي، ومنها الناطور أي الحارس، وهي كلمة معروفة في العديد من اللغات السامية مثل العبرية والآراميات وحتى العربية، لكن المهم هو استعمالها الديني، فهي لا ترتبط بالمندائية فحسب، بل بالقمرانيين وباقي طوائف البحر الميت وبالمسيحية كذلك.

نجد في نصوص قمران مصطلح نوصري ها- بريت، وهو يعني حرفيًا حماة العهد، في إشارة إلى عهد يهوه مع إبراهيم في التوراة، وهي تسمية أطلقها مؤلفوا النصوص القمرانية على أنفسهم، وتختصر بالعبرية إلى نوصريم، ويمكن اعتبارها الاسم الذي عرف به القمرانيون أو غيرهم أنفسهم.

ومن المؤكد أن التسمية العربية للمسيحيين، النصارى، هي على نفس النحو وليس من النسبة المفترضة للمسيح إلى مدينة الناصرة التي لم تكن قد وجدت في عصر المسيح، وإنما ظهرت في فترات لاحقة بعد تدوين الأناجيل (القرون الثاني والثالث الميلادي)، فيسوع نفسه كان يلقب بالناصورايي أو النازاري (تحولت إلى الناصري بالعربية).

ويجب الحذر عند الاعتماد على المصادر المسيحية أو الكلاسيكية، فغالبًا ما يرتبك الأمر على الكاتب والناسخ بسبب ضعف الإطلاع على ماهية أديان أو طوائف تتميز بسرية التعاليم أصلاً، وبسبب التشوش الهائل الذي سببه التغير في النطق عند ترجمة الأسماء من العبرية والآراميات إلى اليونانية واللاتينية، فهناك إشارات في كتب الآباء المسيحيين الأوائل وكتب المؤرخين القدماء إلى طوائف في شرقي الأردن تشابه في أسمائها مع ما نعرفه من الأدب المندائي.

فيذكر هيغسبوس (من القرن الثاني الميلادي حسب كتاب تاريخ الكنيسة ليوزيبيوس الذي توفي في ٣٣٩م) الطوائف اليهودية السبع وهي: الأسينيون، الهيميروبابتست (المتعمدون في النهار) الجليليون، المصبوثيون (المعمدانيون) والسامريون، والصدوقيون والفريزيون، فالمتعمدون في النهار، والمصبوثيون هي أسماء قد تكون لطائفة معمدانية واحدة، الأولى عرفت بالاسم اليوناني، والثانية عرفت بالاسم الآرامي.

ويتحدث أبيفانيس أسقف سلامينا (أواخر القرن الرابع) عن الناصورائيين والنازاريين والأوسيين في حوض نهر الأردن، وقتها كان المندائيون يعيشون في ميسان، أي جنوب العراق، ونجد في مخطوطات قمران تسمية ثانية للجماعة القمرانية، وهي "عوسي ها- توراه"، أي مطبقي أو محققي التوراة، وتختصر إلى عوسيم، وهي نفس الأوسيين التي تحدث عنها أبيفانيس.

وكما مرَّ فإن ناصوري ونازاري تعودان إلى جذر نصر، أو نطر بمعنى ناصورايي، وتغير اللفظ حسب تأثير اللغة اليونانية أو اللاتينية، لغة المصادر التي نقلت إلينا الأخبار الشحيحة عن هذه الطوائف!، المصطلح إذن شائع في تلك الفترة، حماة العهد، حماة الدين... الخ، ولا يرتبط بدين معين كما رأينا.

وعن علاقة اليردنا بنهر الأردن فالأمر واضح، ولا يمكن اعتبار استعمال المندائيين كلمة يردنا هي دليل على الأصل الغربي وإشارة إلى نهر الأردن الحالي، تعني كلمة يردنا في اللغات الآرامية الماء النقي الجاري، ويبدأ

البارسيون (في الهند) أسماء الأنهار بسابقة هي "أرد"، وهناك العديد من الأنهر في أوروبا تذكرنا باليردنا : الرون والراين ، ولا ننسى رودانوس التسمية القديمة، على ما يبدو أن الكلمة ترجع في فترات بعيدة في تاريخ البشرية القديم.

إن الطبقة الأساسية للدين المندائي رافدينية الطابع ولا يمكن تصورها في أية بيئة ثانية عدا بيئة الأهوار والأنهار والماء الوفير في جنوب العراق كما يشير عزيز سباهي بصواب في كتابه "أصول الصابئة"، فهل يقبل المنطق العلمي وضع كل العناصر البابلية الغزيرة في الأدب المندائي جانبًا، والتشبث بحفنة من العناصر الغربية في الدين لإثبات نظرية الأصل الغربي؟.

والأهم من كل ذلك هو وجود العناصر الغربية في جنوب بابل في تلك الفترة، متمثلة باليهود الذين آثروا البقاء في جنوبي وادي الرافدين على العودة إلى أرض كنعان، فما الداعي لاستيراد العناصر الغربية ما دامت قد جاءت من قبل مع اليهود الذين سباهم الكلدانيون إلى بابل وبقوا على اتصال ببلاد كنعان؟ هذا ينطبق مثلاً على ما يسميه المستشرقون "مخلوقات يو"، مثل الملائكة يوشامن ويوزاطق وغيرهم، وسابقة يو هذه تعرف بالحرفين، وهي مختصر للحروف الأربعة يهوه إله العبرانيين القومي، وهناك الحروف الثلاثة يهو (ياهو ، مثلاً في نتانياهو)، واسم يهوه مقدس عند اليهود لا يلفظونه، بل يقرأون إيلوهيم بدلاً منه، لذلك يجري تحريك كلمة يهوه بحركات كلمة إيلوهيم في النصوص.

ويوشامن هو اسم مستعار من التراث الكنعاني، وأصله بعل شمين أي سيد السموات (في الأصل بعل شمايم، تحولت إلى بعل شمين، ثم إلى يوشمين عند اليهود ومنها اشتق المندائيون يوشامن)، أما يوزاطق فهو من يو– صادق، ومن المفترض أن تكون الصيغة المندائية ليوحنا المعمدان يهيا يهانا (يحيى يوحنا) على نفس الشاكلة، لكن لماذا لا يكتبه أو يلفظه المندائيون يوهانا بدلاً من يهانا التقليدية؟ هذا أمر لم يتطرق إليه أحد ويتطلب البحث.

إن اقتباس المندائيين هذه الأفكار من جيرتهم لليهود في بابل هو أسهل بكثير من نقلها عبر هجرة واسعة من وادي الأردن إلى حران فبابل، ولربما هاجر

عدد صغير ممن كانوا يسمون بالناصورايي من حوض الأردن فعلاً، وانضموا إلى المندائيين الموجودين أساسًا في أرض بابل، وهو أمر تشير إليه لفافة حران كويثا صراحة، لكن ذلك ما لا يمكن نفيه أو إثباته في الظرف الحالي، ومع ذلك وحتى التسليم باحتمال مثل هذا لا يفترض تأييد نظرية الأصل الغربي مادام القادمون الجدد انضموا إلى جماعة قائمة منذ زمن، ولم يأتوا بدين جديد.

ولعبت نظرية الأصل الغربي دورًا في تعقيد الصورة المعقدة أصلاً، على سبيل المثال أثناء النقاش حول الخط النبطي في الغرب والخط العيلامي في الشرق، فمن يؤمن بالأصل الغربي لابد وأن يقول بأسبقية الخط النبطي على المندائي لأن الصورة لا تستقيم إلا هكذا، فيكونوا قد أخذوا الخط من النبطيين بطريقهم إلى ميسان، حيث اقتبسه منهم العيلاميون كما رأينا عند ماتسوخ.

ومن المفترض أن الخط المندائي كان قد بلغ اكتماله في القرن الثالث الميلادي، ويصعب تصور اقتباسه من العيلاميين كما يرى يوسف نافيه أو يانوش هارماتا لأسباب تتعلق بتاريخ التدوين عن الشعوب الإيرانية التي لم تطور أبجدية خاصة بها، ولم تستقر على أبجدية إلا بعد الإسلام عندما اختارت الحروف العربية، وحتى الأبجدية الفهلوية كانت تتألف من ثلاثة عشر حرفًا فقط، ولو كان العيلاميون هم من ابتكر وطور الأبجدية هذه، فلماذا نبذوها ولم يستعملوها لاحقًا؟.

من جانب آخر ذكر رودولف أن المندائيين طوروا أبجديهم بعد وصولهم إلى ميسان، وستظل الأبجدية رهينة النقاش حول أصل المندائيين رغم اللقى الأثرية من نقوش ونقود وكتابات... خلال مؤتمر جمعية آرام عن المندائيين في أوكسفورد في عام ٢٠٠٢، شددت الدكتورة كريستا مولر – كسلر على ضرورة فتح ملف أصل المندائيين مجددًا وفقًا للمعطيات الجديدة التي أفرزتها دراسة اللقي الأثرية في وادي الرافدين.

وكسلر مهتمة بدراسة نصوص التعاويذ التي عثر عليها في وادي الرافدين منذ القرن التاسع عشر وخلال القرن العشرين ، والتي بقيت في المخازن دون ترجمة، وتعتقد كسلر أن الدين المندائي تكون في جنوب وادي الرافدينن وتنكر الأصل الغربي لعدم وجود ما يبرر هذه النظرية ، أيدها في ذلك البروفسور المؤرخ أدموندو لوبييري من جامعة أودينا الإيطالية ، وترى مولر- كسلر أن نصوص التعاويذ المندائية كانت موجودة وتلمس الكثير من عناصرها في نصوص تعود إلى فترات أقدم من الهجرة المفترضة، إلى منتصف القرن الثاني قبل الميلاد مثلاً.

وتدل الدراسات الحديثة حول نصوص الأدعية المندائية أن هذه النصوص رافدينية جنوبية بالتمام ، لا بل تحمل بصمات محلية ضيقة غير معروفة حتى في مناطق أخرى قريبة من بلاد الرافدين، وتجادل كسلر أنه كان على الجماعة المهاجرة من فلسطين في القرن الأول أن تغير لغتها وتترجم نصوصها الدينية بثلاث لغات خلال فترة زمنية قصيرة تقرب من مائة عام، هي الفترة الفاصلة بين انطلاقهم المفترض من حوض الأردن لغاية وصولهم إلى جنوب وادي الرافدين ، وهو أمر مستحيل عمليًا ، بالإضافة إلى أن مثل هذه الترجمة للنصوص لابد وأن تترك بصماتها ، مثل وجود عناصر لغوية ومفردات من اللغة الأسبق، وهو أمر لا نعثر عليه في النصوص المندائية.

وتقول في دراسة سابقة لها صدرت في مجلة آرام (عدد١١- ١٢) : أن إحياء دراسات النصوص المندائية القديمة المكتوبة على الرصاص والأوعية الخزفية في السنوات الأخيرة يجبرنا على إعادة تقييم معلوماتنا عن معرفة المندائيين للثقافة البابلية القديمة ودورهم في نقلها ، كذلك أن نصوص التعاويذ المندائية هذه بالذات هي التي ترتبط بشكل وثيق بقضية أصل المندائيين ، هذا الأدب الخاص يكشف معلومات مفصلة حول الكثير من الأسئلة التي لم تحصل إجابتها. إن طبقة الصوتيات والمفردات والتعابير في اللهجة المندائية يجب أن

تكون أدلة كافية لإثبات الأصل البابلي للمندائيين ، لكن يبدو أن هذه الحجج اللغوية لم تكن مقنعة بالنسبة لأجيال من علماء الأديان.

ولم تقنع هذه الحجج البروفسور رودولف ، فهو يعارض هذا الرأي حتى الآن ، ويصر على أنه من الصعب تحديد أصل المندائيين بالاعتماد على دراسة نصوص الأدعية وحدها ، وبظهور الأجيال الجديدة من علماء المندائيات ، وتزايد الاهتمام بدراسة اللقى الأثرية – وهي الأدلة المادية على تاريخ جماعة ما – يأخذ الخوض في أصل المندائيين منحىً جديدًا ، رغم تعقد الموضوع وتشابك عناصره وشحة المصادر التاريخية والأثرية التي ترتبط بالمندائيين.

الأغلبية والأقلية[1]:

في مقال له؛ كتب الأستاذ زهير كاظم عبود أنه ترد كلمة الأغلبية والأقلية كثيرًا في التصريحات والمقالات التي يكتبها المعنيون بقضايا الدستور والحقوق حيث يجري تقسيم القوميات والأديان إلى أكثرية وتليها أقلية، ولا يختلف أحد من كون العراق يتشكل من قوميات متعددة وأديان متعددة أيضًا، وهذه القوميات والأديان تعايشت بانسجام وبمودة ووئام طيلة فترات طويلة من التاريخ العراقي، ولم تبرز في علاقتها أية شروخ أو فواصل لولا تدخل السلطات التي أبتلي بها العراق، وطغى عليها الفكر الشوفيني والشمولي في اعتقادها بأن تغليب قومية على باقي القوميات، تغليب دين على باقي الأديان، أو تغليب مذهب على بقية المذاهب، وإطلاق تسمية الأغلبية والأقلية ضمن النصوص الدستورية سيساهم في تغييب الأكثرية وتشير ضمن هذا المفهوم إلى القومية العربية، وكما يشير دين الأغلبية وهو الدين الإسلامي الحنيف، وتعني المفردة حق سيطرة الأكثرية على الأغلبية من منطق أن الأكثرية هي التي تحكم.

واستمر العمل بمنهج الأكثرية والأقلية حتى اقترنت كلمة الأقليات بالقوميات الأخرى، غير القومية العربية أو الكردية المميزة بثقلها السكاني في العراق، وأصبحت هذه الكلمة لازمة القوميات تسكن العراق، ولها حقوقها الدستورية وواجباتها المنصوص عليها، وهي القومية التركمانية والكلدانية والآشورية، كما انسحبت على الأديان التي تدين بها الأقلية، وهي الديانة المسيحية واليهودية والصابئة المندائية والإيزيدية.

وتضمنت النصوص الدستورية التي تمَّ اعتمادها في العراق منذ تأسيس الدولة العراقية ولحد صدور قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية تعابير مختلفة على الأقلية منها الطوائف كما وردت في عدة دساتير، وكذلك كلمة (الإسلام وغيره من الأديان والطوائف).

١- يرجى الاطلاع على مقالات الأستاذ زهير كاظم عبود.

إن إشارات خجولة مثل هذه ترد في نصوص الدساتير المؤقتة تعني أن تكريسًا للزعم بوجود مساواة بين القوميات والأديان في العراق حبر على ورق دون أن يتم ترجمة وتجسيد هذه الحقوق، لا نتطرق إلى مسألة حقوق الأديان والمذاهب في ممارستها عقائدها وطقوسها بما لا يتعارض مع النظام العام والآداب، إنما نعني مسألة المساواة بين القوميات المتآخية في العراق.

يتم احتساب حقوق هذه القوميات وفقًا لنسبة أعدادها من مجموع السكان في العراق، وعلى هذا الأساس فإن للقوميات غير العربية والكردية نسبة ضئيلة لا يؤشر مساهمة جدية في حقل المساواة بين القوميات في العراق، والأمر نفسه ينسحب على الدين حيث تكون الأديان الصابئية المندائية والإيزيدية تشكل نسبة ضئيلة مقارنة بنسبة عدد المسيحيين والمسلمين في العراق.

وعلى هذا الأساس فإن الحق سيتم تجزئته وتقسيمه وفقًا لنسب محددة، وبهذه الطريقة سيتم تغليب قوميات على أخرى، وسيتم تغليب ديانة على أخرى، مما يتنافى مع مبدأ المساواة التي وردت ضمن نصوص الدساتير الأساس والمؤقتة، وبما فيها قانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية، والذي أكد في المادة الثانية عشر أن العراقيين كافة أي بمختلف قومياتهم وأديانهم متساوون في الحقوق، وبهذا الشكل الذي يفقد المساواة معناها الحقيقي ويجزِّء الحقوق إلى نسب، سيكون لهذه القوميات والأديان نسبة من التمثيل وجزء من الحقوق بما يتناسب مع هيمنة القوميات والأديان التي تسود الساحة العراقية، وسيكون هذا التمثيل النسبي ليس له تأثير مطلقًا ولا يمكن أن يصل إلى مستوى القدرة في صنع القرار أو المساواة مع القوميات والأديان الأخرى.

ويبدو أن المعاناة التي عانى منها المواطن العراقي طيلة الفترة من تشريع القانون الأساس في العام ١٩٢٥ ولغاية تشريع قانون إدارة الدولة العراقية للمرحلة الانتقالية لم يلتفت إلى هذه الناحية المهمة، وأعني بها مسألة التعايش الحقيقي والمساواة في الحقوق.

وإذا كانت جميع النصوص التي وردت في القانون الأساس والدساتير المؤقتة وقانون إدارة الدولة للمرحلة الانتقالية جميعها تشير إلى مبدأ المساواة، فإن اللائحة الدولية لحقوق الإنسان أكدت على هذا المبدأ، وألزمت الدول الموقعة على الإعلان على اتباعه والالتزام به، والعراق من ضمن الدول الملتزمة بذلك.

إن نصوص تدعو إلى المساواة ستصطدم بعقبة كبيرة جرى العمل بها، وهي مسألة الأكثرية والأقلية، وهذه القضية ستحرم أعداد كبيرة من أبناء العراق من تمثيل حقيقي ومساواة دستورية في التمثيل البرلماني القادم.

إن التمثيل النسبي الذي سيتم تطبيقه في العراق واعتبار العراق منطقة انتخابية واحدة سيجعل أملاً وفرصة لهذه القوميات والأحزاب الصغيرة في الحصول على تمثيل لها في البرلمان القادم، ولكن الحقيقة أن هذا التمثيل يبقى رمزيًا وغير فاعل بالنظر لعدم تمركز العديد من أبناء هذه القوميات أو الأديان في مركز انتخابي واحد، بالإضافة إلى توجه العديد من أبناء هذه القوميات الصغيرة والأديان إلى انتخاب أحزاب سياسية كبيرة يرتبطون بها تنظيميًا أو يتعاطفون معها، مما سيضعف أيضًا صوتها من هذه الناحية.

إن موقفًا طوعيًا واستيعاب سياسي وتنظيمي لهذه الأحزاب بأن تضم في قوائمها ممثلين لهذه القوميات والأديان لا يشكل منة من هذه الأحزاب بقدر ما يسجل لها موقف وطني ومعرفة وحرص أكيد على مصلحة الشعب العراقي ومستقبله السياسي الديمقراطي والفيدرالي والتجارب الدستورية والبرلمانية التي مرَّت بها دول عديدة تشكل تجربة ثرية يمكن الاستفادة منها في تشكيل صورة عراقية ما دام الهاجس الأساسي في خلق تعاضد وطني، وتمثيل حقيقي للجميع لغرض المساهمة في ترميم وبناء العراق.

والمملكة الأردنية الهاشمية بلد مجاور يعتمد تخصيص اثني عشر مقعد من أصل ١١٢ مقعد في البرلمان الأردني يتم تخصيصها للمسيحيين والشركس،

ويتم التنافس فيما بينهم على تلك المقاعد، وعند التمعن في عدد سكان المملكة الأردنية سنجد أن هذه المقاعد نسبة إلى مجموع مقاعد البرلمان لا تتناسب مع مجموع السكان من المسيحيين والشركس، وإنما وفقًا لمبدأ المساواة والجدية في التمثيل البرلماني مع أن الأغلبية الساحقة في الأردن من المسلمين والعرب.

كما أن بلجيكا أيضًا سعت إلى تجسيد المساواة بشكل يتوافق مع النصوص الدستورية واللائحة الدولية؛ حين ساوت في الحقوق بين الناطقين بالفرنسية والناطقين بالهولندية مع الناطقين بالألمانية، بالرغم من تفاوت النسب حيث تشكل الجماهير الناطقة بالهولندية الأكثرية وتليها الناطقة بالفرنسية، في حين لا يتجاوز الناطقين باللغة الألمانية نسبة لا تصل إلى ٢% من مجموع السكان، ولكنهم يتساوون مع الطرفين بقصد إيصال الجميع بالتساوي إلى البرلمان باعتباره ممثلاً للشعب، كما أن انضواء هذه القوميات والأديان الصغيرة تحت عباءة قوميات وأديان أخرى يجعل منها تابعًا ليس له مبرر، وهيمنة على أصواتها في حين يقتضي المنطق أن يتم إطلاقها ومنحها حريتها وقابليتها على التعارض أو التوافق.

الإطار الديمقراطي الذي يسعى إليه جميع العراقيين يتشكل في أن يكون للجميع صوت مؤثر ومساهمة إيجابية متساوية في البناء المستقبلي للعراق، فمثلما يكون للعربي وللكردي يكون أيضًا للكلداني وللأشوري والتركماني، ومثلما يكون للمسلم والمسيحي يكون للصابئي المندائي وللإيزيدي ولليهودي هذا الحق أيضًا.

إن إعادة النظر في مفردات الأقليات والأكثرية تدفعنا للتفكير بمعادلة وطنية يتم إنصاف هذه الشرائح التي لم يقل نضالها وتضحياتها في سبيل العراق طيلة التاريخ القديم والحديث، كما أن من حقائق العراق وجود هذه القوميات والأديان والمذاهب، والتي اتفقت جميعها على إلغاء سيطرة قومية على باقي القوميات، فقد حولتنا السياسة الشوفينية إلى بلد تراجع في كافة مناحي الحياة، وقد آن

الأوان أن نركلها إلى غير رجعة، وأن ندفع بأخوتنا من القوميات الأخرى المتفاعلة والموجودة فعلاً في الساحة العراقية، كما ندفع بالأديان العراقية الجميلة والعبقة، المتآخية من أجل المساهمة الفعالة في رسم معالم الدستور والبرلمان العراقي القادم، بما يحقق ترجمة الحقوق المتساوية فعلاً، إذا كان الهاجس الأساسي الذي يدفعنا هو بناء العراق وبدء الخطوات الديمقراطية الأولى، دون أن يكون هدفنا إلغاء الآخر واحتواءه أو السيطرة على السلطة التي لن تدوم لأحد مطلقًا... النظام الديمقراطي والفيدرالي الذي ننتظر يوجب علينا أن ننظر بمنظار عادل ومتساوي لكل القوميات دون حساب للحجم والنسب والبيانات والخطوط والفوارق، ودون أن نضع فوارق بين الأديان في العراق.

يقينًا أن في هذه الالتفاتة الوطنية وقفة نتجرد فيها من العديد من التراكمات السلبية والمخلفات التي تركها في نفوس العديد، منها التجارب الشوفينية المريرة والثقافة الظالمة في أن تكون كل القوميات تابعة لقوميتنا، وأن تكون كل الأديان تحت سلطة ديننا والإسلام من هذا براء.

والاعتقاد بحق الآخر في الحياة العراقية يوجب علينا أن نجدد المناهج بما يجسد حق الإنسان في الحياة، فالحقوق لا تتجزأ، والحقوق ليس منة يمكن أن تتوسل بها لتمنحك إياها سلطات وأحزاب، وإنما هي حقوق موجبة مقررة شرعًا وقانونًا، وهي وجهة نظر قابلة للنقاش ومنطلق يمكن أن يخلق لنا أفكارًا أكثر سعة، أكثر صورة من أجل العراق الديمقراطي والفيدرالي الذي ننشد، فقد حل علينا زمان جديد حق علينا أن نفكر بطرق ننصف بها أخوتنا الأكراد والتركمان والكلدان والآشوريين، وحق علينا أن نقر ونعترف بحقوق مغبونة للصابئة المندائية والإيزيدية منذ زمن طويل، وآن الأوان أن نكشف عنها هذا التراكم الثقيل من الظلم.

إن الإصرار على تطبيق سطحي لمفهوم الأكثرية والأقلية على القوميات في العراق لا يجعل أساسًا طبيعيًا للحياة المستقبلية الديمقراطية، وكما لا يؤسس

لحياة يتعايش فيها الإنسان بكرامة وحقوق متساوية في العراق، وعلى من يريد أن يجعل للمساواة ملامح حقيقية في الحياة العراقية والعمل الديمقراطي؛ ينبغي أن نقوم بتطبيق مبدأ المساواة على الجميع دون أن تكون هذه المساواة مفصلة.

على النسب المئوية؛ فالسعي من أجل إعادة بناء العراق والعمل من أجل ترجمة حقيقية لحقوق الإنسان والمجتمع المدني يجعل للإنسان كقيمة عليا أساسًا في مبدأ المساواة وحضور في الحياة العراقية الجديدة، وأن نقرأ التجربة المريرة التي مرَّت بالعراق دستوريًا وسياسيًا ونستل منها ما يفيد المستقبل العراقي.

وفي تكريس مبدأ التوزيع على حساب الأقليات أو القوميات الأخرى لا يحل لنا مشكلة طويلة وعسيرة طالما عانينا منها في العراق، وطالما تذرعت السلطات بأن لا خيار ولا حل لديها غير الإقرار بالأمر الواقع، وعلى هذا الأساس يبقى الحال على ما كان عليه في حكم القومية الكبيرة للقوميات الصغيرة في العراق، وبذلك نتحول إلى مبدأ جديد مستتر يكمن في انضواء أي قومية صغيرة تحت عباءة القومية الكبيرة مع صيغ دستورية ونصوص قانونية عامة لا تفيد الحق والحقوق، وبقصد ذر الرماد في العيون.

ونعاني في العراق من قضية عدم المساواة في الحقوق بين القوميات، وأن مجرد وجود النصوص لا تعكس حالة إيجابية أو حقيقية على مسألة الشروخ والفجوات التي تتعامل بها السلطات البائدة في قضية القوميات في العراق، شروخ عديدة ينبغي أن تتم دراستها بصراحة وبشفافية بقصد التوصل إلى حلول إيجابية نتجاوز بها عمليًا الفترات السابقة التي كان فيها المواطن العراقي من القومية غير العربية يعاني معاناة قاسية دون أن يحق له أن يعترض أو يرفع صوته عاليًا بوجه السلطات، أو على الأقل يطالب بتطبيق حقيقي لنصوص الدستور.

ومن بين أهم التعابير التي تعاني منها القوميات في العراق تعبير (الأقليات)، والتي تشير إلى عبارة القلة من البشر، والتي توحي أو تهدف إلى إبقاء هذه

المجاميع البشرية تحت سلطة (الكثرة) وأن تكون نسبة حقوقهم بقدر النسبة المئوية الخاصة بمجموعهم، ويشكل الأمر غبناً لمبدأ المساواة في الحقوق، وكما يشكل أيضًا تسطيحًا لمبدأ الحق الذي ينبغي أن يتساوى فيه البشر في كل زمان ومكان، بصرف النظر عن القومية أو الدين أو اللغة أو الفكر أو الجنس.